لونه من الأدب

(أبو نواس — عمر الخيام — حافظ الشيرازى — أبو العلاء)

وقف الفقيهُ يلقى على صبيان مكتبه الحكاية التالية :

أهدى الخليفة هارون الرشيد عقداً لجاريته المحبوبة خالصة فذهب أبونواس وكتب على باب مقصورتها :

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع عقدٌ على خالصهْ !

ولما قرأت الجاريةُ هذا البيت ذهبت غاضبةً إلى الخليفة وأخبرته بذلك ، وشعر أبونواس فأسرع الى باب المقصورة ومحا الجزء الاسفل من العين ولما كان الجزء الاعلى يشابه الهمزة تماماً صار البيت بعد ذلك :

لقد ضاء شعرى على بابكم كما ضاء عقدٌ على خالصهْ !

وحضر الخليفة فلم يجد فى البيت ما يوجب العقاب .

هذه هى المرة الأولى التى التقيتُ فيها بأبى نواس . ومضى بعد ذلك ردح من الزمن وأنا لا ألتقى به الاّ فى الحكايات الخرافية التى تجعله هو وجحا فى صف واحد، وكثيراً ما تجمع الحكايات الخرافية المضحكة بينهما فى مجلس الخليفة الرشيد كل منهما يسابق الآخر فى التهريج والتندر ، وقلما يفرق العامة وأشباه العامة بين الرجلين !

ضاعت الصورة القديمة التى طُبعت فى ذهنى حين قرأتُ شعر أبى نواس وحل محل صديقه القديم عندى عمر الخيام وحافظ الشيرازى وأبو العلاء المعرى إذ فلسفة

الجميع فى الحياة تلتقى عند نقطة واحدة وهى الفناء ، فان فلسفة الثلاثة الأول تتلخص فيما يلى : إذا كانت الدنيا لا قيمة لها وكل ما فيها مآله للفناء (واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للنفاد)(١) فما أجدرنا أن نسرع الى اقتناص اللذات قبل فوات الوقت . وقد أجمع ثلاثتهم على هذا الرأى اجماعاً يكاد يكون تاماً ، فقال أبو نواس :

غدوتُ على اللذات منهتك الستر ... وأفضت بنات الشرّ منى إلى الجهر
وهان علىّ الناس فيما أريده ... بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى ... فبادرت لَذّاتى مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادنٍ ... تحير فى تفضيله فطن الفكر
مدام ربت فى حجر نوح يديرها ... عَلَىّ ثقيل الردف مضطمر الخصر
صحيح مريض الجفن مدنٍ مباعد ... يميت ويحيي بالوصال وبالهجر
كأن ضياء الشمس نيط بوجهه ... وبدر الدجى بين الترائب والنحر
اذا ما بدت أزرار جيب قميصه ... تطلع منها صورة القمر البدر
فأحسن من ركضٍ الى حومة الوغى ... وأحسن عندى من خروج الى النحر
فلا خير فى قوم تدور عليهم ... كؤوس المنايا بالمثقفة السمر
تحياتهم فى كل يوم وليلة ... ظبى المشرفيات المزيرة للقبر

وقال أيضاً :

جريت مع الصبا طلق الجموح ... وهان علىّ مأثور القبيح
وجدت ألذّ عارية الليالى ... قران النغم بالوتر الفصيح
ومسمعة اذا ما شئت غنت ... « متى كان الخيام بذى طلوح »

* * *

تمتع من شباب ليس يبقى ... وصل بعرى الغبوق عرى الصبوح
وخذها من معتقة كميت ... تنزل درة الرجل الشحيح
تخيرها لكسرى رائدوه ... لها حظان من طعم وريح

(١) لأبى العلاء المعرى

ألم ترنى أبحث الراح عرضى وعضّ مراشف الظبى المليح
وانى عالم أن سوف تنأى مسافة بين جسمانى وروحى

وقال عمر الخيام :

انما الفُلْكُ قصدُه كلُّ سوءٍ بكليْنا مبدّداً روحَيْنَا
فارقأ العشبَ واشرب الخمر واغنم قبل يومٍ ينمو على تُرْبَيْنَا !

* * *

سوف أصفو على المحيَّا الجميلِ ماستطعتُ النعيمَ فى قُرْبِ نهرِ
حيثُ زهرٌ وخمرةٌ أحتسيها مثلَ عهدٍ مضى وعهدٍ سيجرى

* * *

انا لا استطيع عيشاً بعبءٍ هو جسمى بغير راحٍ تشيعُ
ما ألذَّ لأوانَ إذ يُقبل الساق بكأسٍ أخرى فلا استطيعُ !

* * *

نال سمعى فى الحان فجراً منادٍ : يا ظريفاً بنا المدلَّهَ امسَى
قمْ وبادرْ للكأس ملأً فتحظَى قبل من يصنعون طينك كأسَا !

* * *

اغنمْ الوقتَ حيث سوف تولى لك روحٌ خلفَ الستار الالَهى
واشربْ الخمرَ حينما لست تدرى لك مبدأ ولا مآلَ التناهى

* * *

أتقضّى الحياةَ كالعابدِ النفس وفى الفكرِ فى شؤونِ الحياةِ
اشربْ الخمرَ فالحياةُ إلى الموت فدعها فى السكر أو فى السُّباتِ !

* * *

عادت السُّحبُ فى بكاءٍ على العُشْبِ وفى الخمر ما يردُّ شجانا
ذاك مرآى لنا ، فيا ليتَ شعرى حينما نغتديهِ مَن ذا يرانا ؟!

« • »

كنتُ فى حانةٍ سألتُ عن الماضين شيخاً مستغرقاً فى الشرابِ
قال: دعهم واشرب! فكم من أناس مثلنا قد مضَوْا لغير مآبِ

« • »

أسعدْ النفسَ أيُّهذا الحبيبُ واشربْ الخمرَ فى ضياء البدرِ
ليس من ضامنٍ غداً، وكثيراً سوف يبدو لكن بنا ليس يدرى!

« • »

ذاك سيرُ الحياةِ، قافلةُ العمرِ عجيبٌ، فاغنمْ حبوراً بأرضِ
ياندیمى! ماذا تخاف من البعث؟! ألا هاتِها! فذا الليلُ يمضى!

« • »

لاتسلْ عن شؤون عهدٍ سيأتى لا، ولا عن مصابه فهو فانِ
فاغنم الساعةَ التى أنتَ فيها واتركْ الفكرَ فى بعيدٍ ودانِ

« • »

وقال حافظ الشيرازى:

يمّمى والسلافَ يافتنتى النّهرَ فنفنى طىَّ الكؤوسِ الهمومْ
إنَّ وقتَ الحياةِ أيامُهَا العشرُ كوَردٍ فى البشرِ لا فى الوجومْ

« • »

الصّبا منبعُ السّلاف الشهىّ فاشربوا مغرقينَ ذلَّ الصبابهْ
انما الكون هزُّهُ لخراب وخرابُ الأربابِ يتلو خرابَهْ

« • »

حدَّثنى: انى لك العمرَ طوعٌ فتشجَّعْ وصُنْ هواك بحلمِ
آهِ اما القلبُ؟ قال صوتٌ حكيمٌ: كتلةٌ من دمٍ حوتْ ألفَ همِّ!

« • »

منحتنى فى البدء كأسَ غرامى وهوأسرى ، وبَعدُ كأسَ عذابى
ثم لمَّا احترقتُ روحاً وجسما وهبتنى للريح مثلَ التراب !

« • »

حولَ صونِ الحياة تصخب أموا هٌ بِنَقبٍ ، والعمرُ رهن انسكابِ
وقريباً سيقذف الدهرُ يا صا حِ متاعَ الحياة من كسر بابِ !

« • »

إئتِ واجلسْ والحبَّ وافتحْ من الوردة قلباً ، والخمرُ فيضُ الاناءْ !
ايها العاشقُ الجريحُ الذى ينشد (م) برءاً سلْ مِبضعاً عن شفاءْ !

« • »

ولكن ابو نواس يمتاز عن هؤلاء بانه كان مسلماً معتقداً أو متظاهراً بالاعتقاد ، وإن لم يمنعه ذلك من أن يطلق لنفسه العنان فى اقتناص اللذات فى غير حياد ولا خجل ، وهو لم يقف عند الغاية التى وصل اليها عمر الخيام والشيرازى بل تخطاها إلى أعنف وأفظع درجات اللذات الشاذة وضروبها المشروعة وغير المشروعة . ولمَّا لم يستطع أن يوفق بين ذلك ومعتقده الدينى لجأ الى حيلة طريفة ليلقى بها عن كاهله كل تبعة دينية كانت أم خلقية فابتدع له مذهباً يقرر فيه فى صراحة وثقة أن عفو الله وغفرانه أوسع من أن يضيقا بذنب مذنب أو باساءة مسىء ! بل تمادى فى غوايته فراح يزين للناس المعاصى طمعاً فى سعة عفوالله ويؤكدلهم أنهم سيندمون على ترك جرائمهم حين يتجلى عفو الله فى الآخرة ! فيقول :

تكثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا فانكَ بالغٌ رباً غفورا
ستُبصرُ إن قدمتَ عليه عفواً وتلقى سيداً مَلِكاً كبيراً
تعضّ ندامةً كفيْك مما تركتَ مخافةَ النّار الشرورا !

وقال :

رُدَّا علىَّ الكأسَ انكما لاتدريان الكأسَ ما تُجدِى
خوّفتمانى اللهَ ربَّكما وكخيفتيهِ رجاؤه عندى
لاتعذلا فى الراحِ ! انكما فى غفلة عن كنه ماتسدى
لونلتما ما نلتُ ما مزجت الا بدمعكما من الوجد

هاتا بمثل الراح معرفةً بلطافة التأليف والودّ
ما مثل نعماها اذا اشتملت الا اشتمال فمٍ على خدّ
إن كنتما لا تشربان معى خوفَ العقاب شربتها وحدى !

ولا كذلك ابى العلاء المعرى الذى لا يستطيع أحدٌ أن يقول إنه كان متعصباً لدينه أولغيره من الاديان بل كان موقفه من جميع الاديان واحداً لا يفضل ديناً على الآخر.

وكان كثيراً ما يعيب على الناس بانهم متدينون لغاية إما طمعاً فى الجنة او خوفاً من النار ، ولذلك كان ينادى دائماً :

توخَّى جميلاً وافعليه لحسنه ولا تحكمى أنّ المليكَ به يجزى
فذاك اليه إن أراد فملكه عظيمٌ والا فالحمام لنا مجزى
فان الذى تهوين من رتبة الرضا يسير لدى ما تتقين من الرجز !

وعلى الرغم من هذا فانك اذا تقصَّيتَ سيرته الخاصة فى حياته لم تجد حرجا فى أن تقول إنه كان زاهداً فى الدنيا زهداً قلما يجاريه فيه أحدٌ .

ومن العجيب أن الفكرة التى جعلت من الدنيا جنة ينعم بها أبو نواس وعمر الخيام وحافظ الشيرازى هى بعينها التى جعلت من الدنيا سجنا لأبى العلاء واضطرته إلى أن يسجن نفسه باختياره ويعزف عن ضروب اللذات وألوان النعيم طائعاً مختاراً زاهداً فى كل ألوان الحياة الناعمة ثم يتخذ من ذلك مذهباً مستوثقاً راضياً فيقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافعٍ فالخسرُ للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائنٌ فصحَّ وضاعت حكمةُ الحكماء
وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء
سنتبع آثار الذين تحملوا على ساقة من أعبُدٍ واماء
لقد طال فى هذا الانام تعجبى فيا لرواء قوبلوا بظماء !
أُرامى فتشوى مَنْ أعاديه أسهمى وما صاف عنى سهمه برماء
وهل أعظم إلاّ غصون وريقة وهل مَأْوُهَا الاّ جنىٌّ دماء
وقد بان أن النحس ليس بغافل له عملٌ فى أنجم الفهماء
نهاب أموراً ثم نركب هولها على عنتٍ من صاغرين قضاء
يقولون إن الدهر قد حان موته ولم يبق فى الأيام غير ذماء
وقد كذبوا ، ما يعرفون انعضادَه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء !
وكيف أقضى ساعةً بمسرة وأعلم أن الموت من غرمائى ؟ !

خـذا حـذرا من أقربين وجانبٍ ولا تذهلوا عن سـيرة الحـزماء

* * *

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقٌّ لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريبُ الزمان كأننا زجاجٌ ولـكن لايعاد له سبك !

* * *

أعنْ باكياً لجَّ فى حزنهِ وسلْ ضاحكَ القوم ممَّا ابتهجْ !

سير ابراهيم

رواية سعاد

(يقع هذا المشهد فى ختام الفصل الثالث بعد شكوى حارة من سعـاد لعمها الـكبير الذى يحبها ويعطف عليها ، فيعدها بأن ينقذها من الزيجة المهياة لها مادامت غيرَ راضيةٍ عنها ، حتى إذا أتى بيت أخيه — والد سعـاد — وشربا القهـوة أخـذا يتحادثان)

عم سعـاد (لأخيه) :

ألا إننى غيرُ راضٍ عليكَ ولستُ أراكَ شقيقاً لِيَهْ !

والد سعـاد : لمـاذا ؟